إسماعيل

دقت الساعة معلنة العاشرة. في نفس الوقت يوميًا يمر إسماعيل، الذى حدثتك عنه من قبل.

ماذا؟.. تقول لا لم أُحدثك..

إذن أعرني انتباهك. كان إسماعيل شاردًا، كطفل ضل أمه في سوق بمدينة غريبة، أشعث الشعر، كثيف اللحية، باكيًا.. هل رأيت من قبل مجذوبًا يبكي بحرقة دائمًا؟

لا..؟ حسنًا..

الآن رأيت إسماعيل. آه، لو تعرف ما حدث له.

كان طفلًا يافعًا يحمل على عاتقه إرثًا ثقيلًا، هو أنه الابن الذكر الوحيد في عائلة العبيسي بأكملها. ربما هي لعنة أصابت رجالهم، فقتلت كل كروموسومات الY، فأصبحوا لا ينجبون إلا إناثًا. لذا فقد كان إسماعيل مدللًا، وسيمًا، ذكيًا.

ولكن هل يصح أن أروي لك قصة إسماعيل دون ذكر يوسف وعلي وخالد؟

كانوا رفاق طفولته، ولكن ليس كل الرفاق يتحابون. كانوا يكرهونه؛ ربما لأنه غني أكثر مما يجب، أو لأنه وسيم أو ذكي، أو لأن جميع مراهقات القرية ترغبن في التقرب منه أكثر مما يجب. أو ربما لأنهم أشرار أكثر مما يجب. كانوا يكرهونه وكفى.

اتفق المراهقون الثلاثة على إسماعيل الذى فشلت كل حيلهم؛ للتحقير من شأنه أمام أصدقائهم من أبناء القرية، إلى أن اقترح عليّ أن يجروا معه تحديًا للشجاعة، يظهر بعده جُبنه أمام فتيان وفتيات القرية. كان التحدي هو البقاء لليلة كاملة داخل بيت «النجولي»، على أن يكون إسماعيل هو صاحب الليلة الأولى، ثم يتوالون الواحد تلو الآخر، وقبل إسماعيل التحدي.

تقول أنك لا تعرف بيت النجولي؟ عزيزي أنت كثير الأسئلة ولكن لا بأس. هو بيت مهجور، يخاف الجميع الاقتراب منه. بالنهار يبدو موحشًا ومخيفًا جدًا، وفي الليل يحترق حتى تأتى عليه النار تمامًا، وكالعنقاء الأسطورية يُبعث في الصباح وكأن شيئًا لم يصبه.

هل تعني نظرتك هذه ياعزيزي أنك تتعجب أو أنك لا تصدقني؟ نعم هو يحترق كل ليلة، وبالنهار يبدو كأن شيئًا لم يكن. مالغريب في هذا!.

نعود إلى إسماعيل الذى اتفق مع الثلاثة على الدخول قبل المغرب بساعة، والبقاء في البيت حتى الفجر. لكن المسكين لم يكن يعلم أنهم سيغلقون الباب عليه من الخارج بقفلٍ ضخمٍ. ويقفوا يتراقصون على صوت صراخه وتوسلاته لنصف ساعة، ثم ينصرفوا ضاحكون.

أخذ يبكي بحرقة وهو ينظر إلى معالم البيت الذى سيسجن بين جدرانه لليلة كاملة، إلا لو عرف بعض أعمامه ما حدث وأتوا لإنقاذه.

كان البيت من طابقٍ واحدٍ، وبهوٍ واسعٍ تطل عليه الغرف، غرف كثيرة تتعدى العشرة. على الرغم من أن هيئة البيت من الخارج لا توحي بهذا العدد أبدًا. وما هي إلا لحظات وأخذ الضوء ينحسر تدريجيًا. توجه المسكين إلى البقعة المضيئة الباقية محتميًا فيها من الظلام المحيط به. إلى أن بدأت البقعة تتناقص وتتناقص حتى وَدَّع البهو ضوء النهار، واختفت في الظلام كل المرئيات. الوحدة والظلام والبرودة أضلاع مربع الرعب الأبدية.

ماذا؟ تقول أن هؤلاء ثلاثة وللمربع أربع أضلاع. لو انتظرت قليلًا يا عزيزي ستعلم الضلع الرابع ولكنك تقاطعني دومًا..

حسنًا حسنًا لا بأس..

حسنًا لا تلح سأكمل ولكن ذكرني إلى أين وصلنا؟

نعم نعم الوحدة والظلام والبرودة. كان الجو شتاءً وبدأت الأمطار تهطل بغزارة، ثم ازداد الأمر سوءًا؛ لتبرق السماء، فيضيء البهو لحظيًا قبل أن تهتز الجدران بصوت الرعد الغاضب.

تكوم إسماعيل على نفسه في أحد الأركان طلبًا للدفء. وفي وسط الظلام وصوت المطر المتزايد تدريجيًا، وعلى الرغم من شدة خوفه راح في غفوة، لم يوقظه منها إلا طرقة عنيفة. انتفض من غفوته معتقدًا أنها هزيم الرعد وشد مجامع ثوبه على صدره طلبًا للدفء، قبل أن يسمع الطرقة الثانية والثالثة متتابعتين. ولكن انتصب شعر جسده حرفيًا عندما رأى ضوء خافت ظهر في إحدى الغرف، كأنه ضوء شمعة أوشكت أن تنتهى، تحاول أن تبدد ظلام البيت ولكن بلا فائدة. حاول الاقتراب من الغرفة ولكن قدميه وكأنهما تحملان أطنانًا من الخرسانة المسلحة ثبتتها إلى الأرض. جاهدًا حاول مرةً أخرى الحركة، فاستجابت.

بخطوات متثاقلة اقترب. فجأة أضاء البيت بأكمله، فأوجل وسقط أرضًا. قبل أن يتبين أنها إحدى تحذيرات البرق من الهزيم القادم. قام يحاول تمالك أعصابه التي تهلهلت تمامًا، واقترب من الغرفة مرة أخرى؛ ليرى في منتصفها شمعةً مضاءةً شمعةً وحيدةً خافتةً، وبجوارها شموع

أخرى ولكنها مطفأة. وكأنها جثث في مقبرة للشموع تنتظر احتضار الشمعة الاخيرة.

أراك تبتسم وتصفق، ماذا؟ هل أعجبك التشبيه؟

ياعزيزي لقد كنتُ من الأوائل في البلاغة، ما رأيك أن أحدثك عن مدرسة أبوللو الشعرية؟

آه، نعم نعم، إسماعيل حسنًا، ولكن لا تسُبَّني مرة أخرى وإلا سكتُّ ها.

جيد اتفقنا. نعود لإسماعيل الذى تعجب من هذه الشمعة التي تلفظ أنفاسها الأخيرة. فهي لم تكن موجودة من قبل، وإلا شَعَر بضوئها عندما حل الظلام، من أشعلها؟! ثم لماذا أشعلها وحدها دون غيرها؟

الشموع حولها كثيرة، ومن يطلب الضوء أو الدفء بالتأكيد سيشعلها جميعًا. وقف يفكر في الأمر أمام باب الغرفة، وقد خشي تمامًا دخولها، إلى أن سمع صوتًا هامسًا مجهدًا يقول له: «تركوك وحيدا أليس كذلك؟».

ثم بدا الصوت وكأنه يضحك بإجهادٍ شديدٍ. مرتجفًا قال إسماعيل: «ممن أاانت؟».

لم يجد ردًا.. واختفى الصوت تمامًا.. حتى المطر كف عن الهطول، ومعه توقف الرعد والبرق، وتزايد ضوء الشمعة حتى صار طبيعيًا.

شـعر إسـماعيل لوهلةٍ أنه كان يتخيل أو يحلم، وولى عائدًا إلى الركن الـذى كان متكـورًا فيـه. بمجرد أن التفت، شـعر بقوةٍ خفيـةٍ تجذبه من الخلف، وتلقيه بقوةٍ؛ ليصطدم بالجدار المقابل للباب، والصوت الهامس صار غاضبًا، وهو يقول: «لا أحد هنا يرحل دون أذن كيرموس.. لا أحد يولي ظهره لكيرموس.. لا أحد يدخل هنا دون أن يخضع لكيرموس».

بصعوبـةٍ حاول القيام مقاومًا آلام ظهره إثـر الاصطدام، نظر حوله باحثًـا عن مصدر تلك القوة التي حملتـه وصدمته بالجدار، فلم يجد غير جـدران عاريـة من كل شيء حتـى الدهـان. ومن مكانه وعـلى الضوء الخافت للشمعة التي أوشكت أن تلحق بصويحباتها في العالم الآخر-إن كان للشـموع مثل ذلك- رأى كتلةً سـوداء، كأنها قزم يجلس مسـتندًا على الجدار المجاور له، وبمجرد أن استقر ناظريه عليه، علت ضحكات الكيان، وهو يقول: «لا أحد هنا غير كيرموس وغيرك... ما اسمك؟».

نظر إسـماعيل نحـوه متعجبًا هيئته التي لا توحي أبـدًا بما يملك من قوة، قائلًا وهو يتأوه من آلام ظهره «إسماعيل.. اسمى إسماعيل».

قـام الكيان من مكانـه، واقترب بقامته التي لم تجاوز المتر، حتى سـقط ضوء الشمعة اليتيمة على وجهه؛ لتبدو ملامحه جامدة كأن وجهه قد صنع من البلاسـتيك، إلا أن عينيه اللتين انعكـس عليهما الضوء الخافت، كانتا شديدتي اللمعان. مما زاد من ارتجاف إسماعيل وهو يسأله «من أنت..؟»

«جني، أليس كذلك؟»

شعر بقوة تجذبه للأسفل حتى سقط على وجهه، ثم سحلته حتى أصبح ملقًى على وجهه بين يدى الكيان الذى اتقدت عيناه بصورة مرعبة، وهو يقول بغضبٍ:

«أنا كيرموس القديم.. الذى يتغذى على الشرور.. أنا كيان من القدماء، لست من الجن، الجن لا يجرؤون على الاقتراب من هنا. طالما كان كيرموس حيًّا».

ثم أشار إلى الشمعة المتبقية قائلًا: «ولكن يبدو أنهم اقتربوا بشدةٍ هذه المرة».

اعتدل إسماعيل قائلًا: «ولكننى لم آتي إلى هنا بإرادتي، لقد حبسني أصدقائي وانصرفوا، ادعوا أنه تحدي لمدة ساعة، ولكنهم كانوا مخادعين. أرجوك لا تقتلني فلا ذنب لي «لمعت عينا الكيان بقوة واقترب من إسماعيل وكأنه يتشممه، ثم أغمض عينيه وهز رأسه قائلًا: «أنت لاتملك ما أريد، ولكنك ستساعدني وإلا قتلتك».

أوجل إسماعيل عندما سمع تهديده وقال: «وكيف أساعدك لأنجو بنفسي».

اقترب الكيان منه وجذبه؛ ليلتصق وجهيهما، ثم قال في صوتٍ كالفحيح «أصحابك الذين حبسوك أريدهم هنا غدًا.. دون تأخيرٍ..

ولو فعلت ذلك فلن تنجو بنفسك فقط.. بل سأمنحك الكثير. خذ هذه، قالها ومد يده بلؤلؤة صغيرة ظهرت في كفه فجأةً، فالتقطها إسماعيل منبهرًا بلمعانها برغم الظلام. فقال الكيان «سأعطيك المئات منها، وسأحقق انتقامك من أصدقائك، طالما أنك ستطيعني في ما آمرك به. والآن أذهب أمام الباب، ومر من خلاله ستجد نفسك في الخارج. ولكن احذر أن تحاول خداعي، كيرموس لا يسامح أبدًا من يحاول خداعه. سأقتلك حينها ولو كنت في فراشك بين أهلك. ثم اقترب بوجهه من إسماعيل قائلًا بفحيح مرعبٍ «هل فهمت؟»، سأقتلك لو حاولت خداعي ولم تحضرهم هنا.

توجه إسماعيل نحو الباب واقترب منه ومد يده؛ ليشعر بها تنفذ من خلال الباب، وتضربها البرودة في الخارج، فتشجع وعبر، ثم جرى يقطع الطرقات متوجهًا إلى بيته.

ظل طيلة الليل مستيقظًا، يتأمل اللؤلؤة وقد عزم على عدم الرجوع إلى البيت ونسيان الأمر برمته. على أن يجد وسيلة ينتقم بها من أصدقائه الثلاثة، إلى أن غلبه النوم فرأى نفسه بداخل البيت، يقف أمام كيرموس الذى كان غاضبًا بشدةٍ، ويصرخ قائلًا:

«لا أحد يعبث مع كيرموس.. لا أحد يخدع كيرموس.. لا أحد ينجو من كيرموس..». ثم أشار بيده ليسمع إسماعيل فحيحًا غاضبًا، نظر تجاه الصوت فرأى ثعبانًا ضخم الرأس له قرن مدبب، غير أن عيناه لم تكونا

مشقوقتين طوليًا، بل كانتا مستديرتين كعيون القطط. فحيح من الجانب الآخر.. تبعه ثالث.. ورابع.. كان محاطًا بالثعابين من كل اتجاه.

نظر إلى الكيان؛ ليستغيث به، ليفاجأ به قد ارتفع عن الارض، ويجلس على الهواء بطريقة مذهلة كأنه هندي وصل إلى حالة متقدمة من النيرفانا. وبينما هو يتابعه في ذهول، شعر وكأن تيارًا كهربائيًا صعق ساقه جراء قضمة من أحد الثعابين، تلتها ثانية في ذراعه وثالثة في ظهره. أخذ يتلوى محاولًا نفض الثعابين عن جسده، قبل أن يهجم أحدهم على رقبته فاستيقظ صارخًا من نومه والعرق يغمره بشدة؛ ليجد الكيان يقف عند مؤخرة فراشه وبيده الشمعة التي تحتضر، ويقول بغضبٍ: «لقد حذرتك من خداع كيرموس ..»، ثم حرّك يده فوق الشمعة، فزاد لهيبها بشدة حتى اشتعلت ستائر الغرفة وطالت النار الدولاب الخشبي.

شعر إسماعيل أن الغرفة ستحترق بأكملها فأغمض عينيه، وأخذ يصرخ بقوةٍ على أحدٍ يسمعه من أهله ويأتي لإنقاذه. قبل أن يشعر بيد تمسك بذراعه وتجذبه بقوة، ففتح عينيه؛ ليرى وجه أمه التي أتت من غرفتها على أثر صراخه، وهى تبسمل وتحوقل ثم قالت له: «لا بأس يا إسماعيل، لقد كان كابوسًا».

ود لو يخبرها بكل شيء.. ود لو يخبرها بهذا الكابوس المركب الذى لم يمر بمثله من قبل.. ولكنه خشي من انتقام كيرموس.. فصمت. وقرر أن ينفذ ما طلبه منه الأخير وهو ما تلاقى مع رغبة الانتقام في نفسه.

في الصباح كان إسماعيل في حالة غير التي توقعها أصدقاءه الثلاثة، كانوا يعتقدون أنه سيأتي محطم الكبرياء، ذليل النفس بعد الليلة التي قضاها في بيت النجولي. ولكن آمالهم خابت تمامًا، وزاد إحباطهم أكثر بعد أن عرض عليهم إسماعيل اللؤلؤة، وخدعهم بأن هناك كنز في البيت. ولكنه يحتاج إليهم جميعًا لحمله، لذا فعليهم أن يلتقوا في البيت ليلًا حتى يتدبروا هذا الأمر..

ولكن يجب أن لا يخبروا أحدًا أبدًا عن وجهتهم ولا حتى أهليهم.

أراك تهز رأسك استحسانًا.. هل أعجبتك الحيلة؟.. ألم أخبرك أن إسماعيل كان ذكيًا؟!..

حسنًا سأكمل.. ولكن أعتقد أنهم أعدوا طعام العشاء، هيا بنا إلى البيت، وسأكمل لك ونحن نتناول الطعام.

مع غروب الشمس، وصل الأصدقاء الثلاثة إلى البيت؛ ليجدوا إسماعيل ينتظرهم أمام الباب. لحظات وكانوا بداخل البيت يتحسسون خطواتهم بين الظلام والبرد القارص. لاحظ خالد ضوءًا خافتًا يأتي من الغرفة الجانبية، فأوجل ثم قال: «ما هذا الضوء الذى يأتي من تلك الغرفة؟

التفتوا جميعًا تجاه الغرفة، وقد بدا على وجوههم أنهم سيفرون حالًا من البيت، فطمأنهم إسماعيل: «بينما كنت أنتظركم دخلت إلى البيت

قبل الغروب، وأشعلت تلك الشمعة في الغرفة التي تحتوي على الكنز؛ حتى لا يصبح المكان مظلمًا تمامًا حين ندخله بعد غروب الشمس». هدأوا بل وتشجع يوسف وخطا نحو الغرفة، وتبعه علي وخالد بينما أخّر إسماعيل نفسه قليلًا؛ لينتظر ما سيحدث.

وحين لم يسمع شيئًا اقترب من الباب، وبمجرد أن خطا بيمناه داخل الغرفة سمع صرخات رهيبة من حناجر أصدقائه الثلاثة. فتسمر مكانه فزعًا، كانت الصرخات تتعالى وكأنهم يتعرضون لنزع جلودهم عن أجسادهم مصحوبة باستغاثات غير مفهومة، ثم تحولت الصرخات إلى حشرجة مريعة قبل أن تهدأ تدريجيًا.

ثم توقفت تمامًا.

انتظر إسماعيل لحظة بعد هدوء الصوت ودخل الغرفة. تحول أصدقاؤه إلى جثث جافة ، وكأنما شويت لحومهم دون أن يحترق الجلد، ولكنه تيبس بصورة عجيبة. الشمعة التي كانت تحتضر زاد لهيبها، ولكن لم تكن وحدها السبب في زيادة الضوء في المكان، بل عاونها في ذلك ثلاث شمعات أخرى، تأجج لهيبها الذى كان يهتز بقوة كأنما يصارع الريح من أجل بقائه مشتعلًا، ثم هدأ واستقر. كيرموس أصبح أضخم وأكثر غضبًا من ذى قبل حتى تجاوزت قامته المترين بقليل، وكان ينفث من فمه دخانًا أبيض اللون.

اقـترب من إسـماعيل وأمسـكه من مجامـع ثوبه، ورفعـه لأعلى وهو يقـول: «كنـت أعلم أنك عاقـلًا.. جائزتـك..» ثم أنزلـه على الأرض ووضـع في كفيـه ثلاثة لألِيء، وقـال: «هذا عهدي معك.. سـتحضر لي أرواحًا شريرةً، وسأعطيك لؤلؤة عن كل منها..»

فاتسـعت عينا إسـماعيل وقال وهو يشير إلى جثث أصدقائه الثلاثة: «ولكـن هـذا لم يكـن اتفاقنا.. لقـد اتفقنا أن أحضر لك هـؤلاء على أن تمنحني الكثير من اللألِيء ثم ينتهي الأمر..»

صرخ الكيان بغضب «كيرموس هو من يشترط.. كيرموس هو من يقـول والجميع يخضـع .. الجميع يخضع في صمـت.. ومن يخضع لأمر كيرموس ولو لمرة، فلا سبيل له للعودة إلا بالموت..».

انفعـل إسـماعيل وألقى ما بيده مـن لألِيء بعد أن أحـس بتورطه في الأمـر، وقـال وهو يجز على أسـنانه «لن أفعل.. لن أتسـبب في قتل أحد آخر.. حتى لو قتلتنى الآن..».

ارتفع لهيب الشموع المشتعلة بشدة، بينما انتفخت أوداج كيرموس، وتصاعـدت من أنفه وفمه أبخرة بيضاء شـديدة السـخونة. وهو يقول بصوتـه الذى يشـبه الفحيـح والذى يعنى شـدة غضبـه: «كيرموس لا يمتـص غـير أرواح الأشرار.. أمـا أنت فروحـك لن تنفعنـي.. ولكن لديك شيء آخر مميز.. كيرموس يحتاج هذا الشيء..». ورفع كيرموس يده ووضعه على رأس إسماعيل، ليصرخ بقوةٍ، ثم أظلم كل ما حوله.

ومن يومها أصبح إسماعيل كما ترى. لماذا تفتح فمك هكذا..؟

آه إذن لم تفهم..!

حسنًا سأخبرك..

لقد كان إسماعيل يملك ذكاءً شديدًا، وهو ما شعر به الكيان من خلال الخدعة التي دبرها إسماعيل لإقناع أصدقائه بالدخول للبيت، فقام بامتصاص عقله؛ ليصبح المسكين فاقد العقل كما تراه الآن..

ماذا..؟ تتساءل كيف عرفت كل هذا؟ ياعزيزي الجميع في هذه البلدة يعرف ما حدث لإسماعيل.. ولكن للحق أنا أعرف أكثر.. هل ترى تلك الغرفة؟

تعال معي.. تقدم لا تخف.. نعم نعم الكثير من الشموع المشتعلة.. ممتاز يا عزيزي تملك قوة ملاحظة.. بالفعل هناك شمعة منطفأة..

وإذن فهذا بيت النجولي كما لم تلحظ اللافتة المعلقة على الباب الخارجي.. وإذن فأنا كيرموس.. كيرموس القديم. ما بك يا عزيزي.. أرجوك لا ترتجف.. ودعنا ننهي الأمر سريعًا.. صدقني لن تشعر بأى ألم..

هيا اقترب.. اقترب ولتشتعل الشمعة الأخيرة.

(تمت)